لوقا ٦، ٣١-٣٦

الأحد الثاني من لوقا

القانون الذهبيّ

"ما تريدون أن يفعله الناس لكم كذلك افعلوه أنتم لهم "

لعلّ من أشيع وأبشع العبارات، التي نراها مخططة في صدور المحلات العامّة والمتاجر ولربّما الباصات هي: "لا تعمل خيراً لا تجدْ شراً". وليس هناك عبارة أوضح منها تدلّ على الدراية والحذر والمحافظة على الذات والاحتماء والانغلاق. وهذا المبدأ فيه الكفاية من روح التشاؤم والعداوة. إنّه موقف يخشى أن يقدّم دون أن يستفيد أو أن يجازف دون ان يربح، على الأقل تقدير الآخرين.

نقرأ اليوم في الإنجيل ما يسمى بالقانون الذهبيّ للحياة، الذي يرد هنا بوجهه الإيجابي. أما القانون بوجهه السلبي فهو: "ما لا تريده أن يعمل الناس بك لا تعمله أنت بهم". وهذا الوجه من القانون يضع الحدود التي يجب أن تكون بين الإنسان والقريب. فالشرور التي لا تريدها من الآخرين لا توقعها أنت بهم. وهذا المبدأ يُنهي حريتَنا عندما تبدأ حريّة الآخرين. وعلى هذا الأساس تنتظم كلّ العلوم الاجتماعيّة المعاصرة؛ وهو الأساس الذي يخطط حدود الفواصل ويضبط التعايش دون مشاكل وتجاوزات.

نسمع في النصّ الإنجيليّ اليوم هذا القانون في وجهه الأفضل والإيجابي: "ما تريد أن يعمله الناس بك اعمله أنت لهم". فهذا المبدأ لا يحدّد خطوط الفصل بين فرد وآخر في المجتمع وإنّما يفتح أبواب الوصل بين الذات والآخر، إنّه المنظور المسيحيّ على أنّ الحياة في المجتمع ليست حياةً فردية تقوم على احترام الآخر فقط، وإنّما هي، فوق محبّة الذات والتعايش، حياة تربطها محبّة الآخر والمسؤوليّة على التعاضد. فحريّتي لا تنتهي إذن عندما تبدأ حريّة الآخرين فقط، بل حريّتي تبدأ، باختياري، عندما تبدأ راحة الآخرين. المطلوب ليس التعايش، بل العلاقة الحيّة في محبّة. المحبّة لا تحتاج إلى فواصل للتعايش وإنّما تغتنم الفرص من مسؤوليّة الحبّ لتبادر دون انتظار، ولتعطي دون حسبان ولتقدّم دون أجر.

الأمثولة الأولى، تعبر تماماً عن مبدأ شريعة الغاب. والقانون في وجهه السلبي لم يقبل به يسوع بل اعتبر أن "الخطأة" يقومون به ولا أجر لمن يعطي ليأخذ، ويدين ليستقرض، ويحبّ ليحبّ. ولذلك يبدأ يسوع وصيته بالوجه الإيجابي للقانون، أن نفعل للناس ما نتمنّى أن يفعله الناس لنا.

وهذا المبدأ يحقّق الذات ليس عن طريق فصلها وحمايتها من الناس وإنّما عن طريق بـذلها وخـدمتها للناس. هكذا هنا "الأنا" تتحقّق لا بفصلها وإنّما ببذلها. فالواحـد يتحقّـق لـيس بمقـدار سـعادته بـل بمقـدار سعادة الآخر. العطاء ألذّ من الأخذ، كما يقول بولس الرسول على لسان الربّ يسوع.

وينتهي يسوع بتعميم مبدأ جديد فوق كلّ الشرائع الأخرى! فيمكن للإنسان أن يتمنى أمـوراً عديـدة ليعمله الناس له، ولكن لن يتخيل أن يتمنى أن يحبّه عدوه!

"أحبّوا أعدائكم" فتكونوا بني العليّ! إنّ تطبيق هذه الوصيّة السامية والغريبـة، هـو منتهـى المحبّـة، إنّها المحبّة الكاملة التي بلغ صاحبها درجـة لا يـرى فـي أيّ إنـسان عـدوّاً مهمـا عـاداه. بـل يـرى فيـه ابنـاً للعليّ. المسيحيّ لا يعادي إنساناً وإن أخطأ إليه، بل يعادي الخطيئة!

فمَن يُسمّى "عـدوّي" هـو بالحقيقـة ابـن للعلـيّ وأخ لـي. ولكـن قـد يكـون موقفـه عـدائياً تجـاهي، والإنسان غير الموقف. المحبّة تتعلق بالإنسان وليس بموقفه. إنّها المحبّة التي علـى شـبه محبّـة الـسيّد الذي ينعم على الأبرار والأشرار، وذلك لأنه رحيم! هذه المحبّة التي تجعل الإنـسان كربّـه "رحيمـاً" لا تـرى في أيّ إنسان عدوّاً مهما تغايرت مواقفه. "كونوا رحماء كما أن أباكم السماويّ رحوم". فحياة المسيحيّ لا تتحقّق "بالقسمة" أو "بالعدل" أو "بـالاحترام" بينـه وبـين الآخـرين وإنّمـا "بالرحمـة". هـذه المحبّـة تحتمـل طوعياً مسؤوليّة تجاه الآخر. الآخر هو قريب وحبيب، ابن للعلي ومدعوّ للخلاص كما أنا، إنّه إذن رسالة أيضاً ومسؤوليّة بالتالي، ومهما تبدلت مواقفه تجاهي لا تتبـدل مـسؤوليّتي تجاهـه. هـذا المبـدأ يجعلنـا رحمـاء كأبينا السماويّ.

هذا هو "الحقّ" في المسيحيّة، إنّه الحبّ! لذلك يقـول المزمـور: "أنـصت إلـي بحقّـك ولا تـدخل فـي محاكمة مـع عبـدك". لأن عدالـة الله هـي رحمتـه، كمـا يقـول القـدّيس نيقـولاوس كاباسـيلاس. "العدالـة" الاجتماعيّة تقوم على المبادئ الأدنى والسابقة، أما العدالة المسيحيّة فتقوم على "المحبّة" و"الرحمة".

المسيحيّ يعرف معنى حبّة الحنطة التي تدفن لتعطي أكثر، أنّه حبّة حبٍّ صغيرة، يبذل ذاتـه لتـصير كرم حبّ كبير بين الناس، لذلك يقول بولس الرسول: أيّهـا الإخـوة "احتملـوا أنـتم الأقويـاء أوهـان الـضعفاء". فمن يخطىء إليّ هو بحاجة مني لسند من المحبّة أقوى، ومن يعاديني يحتاج آنذاك لحبٍ أكثر.

آميـن